الفوز في ضوء القرآن الكريم

■ د. توفيق علي زيادي

الفوز: هو الغاية التي يسعى إليها المؤمنون، ويشمِّر إليها الأكياس العارفون، وشوَّق الله إليها فقال: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

الفَوْزُ: النَّجاءُ والظَّفَرُ بالأُمْنِيَّة والخير[١].

قال الراغب: فوز: الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة[٢].

أسباب الفوز:

أولاً: الإيمان والعمل الصالح:

قال - تعالى -: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠]. وقال - تعالى - في سورة البروج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١].

ما العمل الصالح الذي قدَّمه أصحاب الأخدود لينالوا الفوز؟ إنه الثبات على الدين والاستشهاد في سبيله.

ثانياً: الصدق:

قال - تعالى -: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩]. اعلم أنه - تعالى - أخبر أن صدق الصادقين في الدنيا ينفعهم في القيامة[٣].

ثالثاً: الولاية بين المؤمنين:

قال - تعالى -: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧١ - ٧٢].

أوليـاء بعض: في المحبة والمـوالاة، والانتماء والنُّصرة. فتحقيق الخير ودفع الشـر يحتاجان إلى الولاية والتضامن والتعاون، وهذه صورة الأمة المسلمة التي يريدها القرآن.

رابعاً: خشية الله وتقواه:

قـال - تعالى -: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

والخشـية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بمـا يُخشـى منه، ولذلك خصَّ العلمـاء بها في قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨][٤].

(١) لسان العرب: ٥/ ٣٩٣.
(٢) مفردات الراغب: ٦٤٧.
(٣) تفسير الرازي: ٦/ ٢٠٥.
(٤) المفردات: ١٤٩.

أي: يخافه خوفاً مقروناً بمعرفة؛ فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ بترك المحظور؛ لأن التقوى - عند الإطلاق - يدخل فيها فعل المأمور وترك المنهي عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقي عذاب الله بترك معاصيه[1].

والتقوى أعم من الخشية، فهي مراقبة الله والشعور به عند الصغيرة والكبيرة والتحرج من إتيان ما يكره؛ توقيراً لذاته سبحانه، وإجلالاً له، وحياء منه، إلى جانب الخوف والخشية[2].

خامساً: الجهاد بالمال والنفس:

قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠]. وقدم المال على النفس؛ لأنه «من لم يَجُدْ بماله لا يَجُدْ بنفسه». والمجاهد استحقر الدنيا ووقف على معايبها، وعرَّض نفسه وماله للهلاك والبوار، ولولا أنه استحقر الدنيا لما فعل ذلك[3].

سادساً: الصبر على الإيذاء والاستهزاء:

قال - تعالى -: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١]. أخبر عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم أيها المجرمون[4]!

سابعاً: الوفاء بالبيعة مع الله:

قال - تعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم الله فأغلى ثمنهم. وقال شَمِر بن عطية: ما من مسلم إلا لله - عز وجل - في عُنُقه بيعة، وفَّى بها أو مات عليها. أي: فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد؛ بالفوز العظيم، والنعيم المقيم[5].

وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض وهو أكبر الأعواض وأجلها؛ جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها وهو النفس والمال الذي هو أحب الأشياء للإنسان، وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع وهو أشرف الرسل، وبأي كتاب رقم وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق[6].

إنها صفقة مشتراة، ولشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وَفْق ما يفرض ووَفْق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم، لا يتلفت ولا يتخير، ولا يناقش ولا يجادل، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام.. والثمن: هو الجنة. والطريق: هو الجهاد والقتل والقتال. والنهاية: هي النصر أو الاستشهاد.

وما الذي فات المجاهد؟ وما الذي فات المؤمن الذي يسلم لله نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ والله ما فاته شيء! فالنفس إلى موت، والمال إلى فوت؛ سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل الله أو في سبيل سواه.

ثامناً: طاعة الله والرسول وقول السداد:

قال - تعالى -: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧١]. فيعمل بما أمره به وينتهي عما نهاه عنه ويقول السديد[7]، ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ أي: فقد ظفر بالكرامة العظمى من الله[8]. والطاعة بذاتها فوز عظيم، فهي استقامة على نهج الله. والاستقامة على نهج الله مريحة مطمئنة، والاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح سعادة بذاته[9].

نفي التسوية بين المختلفين من حكمته سبحانه:

قال - تعالى -: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]. قال ابن القيم - رحمه الله -: «نفى الله - سبحانه - عن حُكمه وحِكْمَته التسوية بين المختلفين في الحكم فأخبر أن هذا حكم باطل في الفطر والعقول لا تليق نسبته إليه سبحانه»[10].

(١) تفسير السعدي: ٥٧٢.
(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٩١.
(٣) تفسير الرازي: ٧/ ٤٨٢.
(٤) تفسير ابن كثير: ٥/ ٤٩٩.
(٥) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢١٨.
(٦) تفسير السعدي: ٣٥٢.
(٧) السَّديدُ والسِّداد: الصواب من القول يقال: إنه لَيُسَدِّدُ في القول، وهو أن يُصيبَ السِّداد يعني: القصد (لسان العرب: ٣/ ٢٠٧).
(٨) تفسير الطبري: ٢٠/ ٣٣٦.
(٩) في ظلال القرآن: ٦/ ١٠٢.
(١٠) إعلام الموقعين: (ج١/ ١٣٢).

من صور الفوز في القرآن:

أولاً: الزحزحة عن النار ودخول الجنة:

قال - تعالى -: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. أي: فمن نُحِّي عن النار فأبعد منها وأدخل الجنة فقد نجا وظفر بعظيم الكرامة(١). وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَوضِعُ سَوْط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»(٢) قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنْ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»(٣). فالأول: رعاية حقوق الله، والثاني: محافظة على حقوق العباد.

ثانياً: رضوان من الله:

قال - تعالى -: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]. ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ يحله على أهل الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما هم فيه من النعيم، فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمَّلها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسماوات أكبر من نعيم الجنات(٤).

كما جاء في حديث البخاري - رحمه الله - في كلام الله مع أهل الجنة: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ! فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبِّ! وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ؟ فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً»(٥).

التشويق إلى الفوز العظيم:

قال - تعالى - على لسان أصحاب الجنة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠]. المقام مقام لذة وسرور، قد دلَّ ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يُسرون بالتحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال، ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة: ما لا يمكن التعبير عنه.

فمدح - سبحانه - النعيم وشوَّق إليه العاملين، وحثَّهم على العمل فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات: ٦٠]، حيث حلَّ عليهم رضا رب الأرض والسماوات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته، وسرّوا برؤيته، وطربوا لكلامه ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]. فهو أحق ما أُنفقت فيه نفائس الأنفاس، وأَوْلى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشتغل بالعمل الذي يقرب لهذه الدار، فهؤلاء ينعمون بسمر هادئ، يتذاكرون فيه الماضي والحاضر؛ وذلك في مقابل التخاصم والتلاحي الذي يقع بين المجرمين(٦).

الفوز العظيم في فهم المنافق:

قال - تعالى -: ﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٣]، أي: بأن يُضْرَبَ لي بسهم معهم فأحصل عليه، وهو أكبر قصده وغاية مراده(٧).

أي: يتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك - من جهاد وقتال - كأنه ليس منكم يا معشر المؤمنين! ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية(٨). إنها أمنية الفوز الصغير بالغنيمة والإياب.

مفهوم الفوز عند الصحابة:

عَنْ أَنَسٍ - رضي الله عنه - قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْوَاماً مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ إِلَى بَنِي عَامِرٍ فِي سَبْعِينَ: فَلَمَّا قَدِمُوا قَالَ لَهُمْ خَالِي: أَتَقَدَّمُكُمْ: فَإِنْ أَمَّنُونِي حَتَّى أُبَلِّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِلَّا كُنْتُمْ مِنِّي قَرِيباً. فَتَقَدَّمَ فَأَمَّنُوهُ: فَبَيْنَمَا يُحَدِّثُهُمْ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَوْمَوْا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ فَطَعَنَهُ فَأَنْفَذَهُ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ!(٩). قال القاتل: ما الفوز الذي فازه؟ قيل له: الشهادة، فكانت هذه الكلمة سبباً في إسلامه.

اللهم! اجعلنا من الفائزين، آمين.

(١) تفسير الطبري: ٧/ ٤٥٢.
(٢) صحيح البخاري، رقم(٣٠١١).
(٣) صحيح مسلم، (٣٤٣١).
(٤) تفسير السعدي: ٣٤٣.
(٥) صحيح البخاري، (٦٩٦٤).
(٦) تفسير الطبري: ٢١/ ٥١.
(٧) تفسير ابن كثير: ٢/ ٣٥٨.
(٨) تفسير السعدي: ١٨٦
(٩) صحيح البخاري، (٢٥٩١).